الله سبحانه أمر نبيه بأن يصبر على تقصير وأخطاء المستجيبين لدعوته

الهدوء والتدرج والسرية أهم خصائص بناء المسلمين في الفترة المكية

كان بناء الجماعة المؤمنة في الفترة المكية يتم بكل هدوء وتدرج وسرية، وكان شعار هذه المرحلة هو توجيه المولى عز وجل المتمثل في قوله تعالى: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» فالآية الكريمة تأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن يصبر على تقصير وأخطاء المستجيبين لدعوته، وأن يصبر على كثرة تساؤلاتهم، خاصة ان كانت خاطئة، وأن يصبر على ترددهم في قبول التوجيهات، وأن يجتهد في تصبيرهم على فتنة أعداء الدعوة، وأن يوضح لهم طبيعة طريق الدعوة، وأنها شاقة، وأن لا يغرر به مغرر ليبعده عنهم، وألا يسمع فيهم منتقصًا، ولا يطيع فيهم متكبرًا، أغفل الله قلبه عن حقيقة الأمور وجوهرها.

ان الآيات الكريمة السابقة من سورة الكهف تصف لنا بعض صفات الجماعة المسلمة الأولى والتي من أهمها:

أ- الصبر في قوله تعالى: «واصْبِرْ نَفْسَكَ»: ان كلمة الصبر تتردد في القرآن الكريم وفي أحاديث النبي- صلى الله عليه وسلم-، ويوصي الناس بها بعضهم بعضا، وتبلغ أهميتها أن تصير صفة من أربع للفئة الناجية من الخسران.

قال تعالى: «والْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» (العصر) فحكم المولى عز وجل على جميع الناس بالخسران الا من أتى بهذه الأمور الأربعة:

1 - الإيمان بالله. 2 - العمل الصالح.
3 - التواصي بالحق.
4 - التواصي بالصبر.

لأن نجاة الانسان لا تكون الا اذا أكمل الانسان نفسه بالايمان والعمل الصالح، وأكمل غيره بالنصح والارشاد، فيكون قد جمع بين حق الله، وحق العباد، «والتواصي بالصبر كذلك ضرورة؛ فالقيام على الايمان والعمل الصالح، وحراسة الحق والعدل من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة، ولابد من الصبر على جهاد النفس، وجهاد الغير، والصبر على الأذى والمشقة، والصبر على تبجح الباطل، والصبر على طول الطريق وبطء المراحل، وانطماس المعالم وبعد النهاية».

ب- كثرة الدعاء والإلحاح على الله: وهذا يظهر في قوله تعالى: «يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ» فالدعاء باب عظيم، فاذا فتح للعبد تتابعت عليه الخيرات، وانهالت عليه البركات، فلا بد من تربية الأفراد الذين يعدون لحمل الرسالة وأداء الأمانة، على حسن الصلة بالله، وكثرة الدعاء؛ لأن ذلك من أعظم وأقوى عوامل النصر.

ج- الاخلاص: ويظهر في قوله تعالى: «يُرِيدُونَ وَجْهَهُ»، ولا بد عند اعداد الأفراد اعدادًا ربانيًا أن يتربى المسلم على أن تكون أقواله، وأعماله، وجهاده كله لوجه الله وابتغاء مرضاته، وحسن مثوبته، من غير نظر الى مغنم، أو جاه، او لقب، أو تقدم، أو تأخر، وحتى يصبح جنديًا من أجل العقيدة والمنهج الرباني ولسان حاله قوله تعالى: «قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ» (الأنعام: 162-163)

ان الاخلاص ركن من اركن قبول العمل، ومعلوم أن العمل عند الله لا يقبل الا بالاخلاص وتصحيح النية وبموافقة السنة والشرع.

د- الثبات: ويظهر في قوله تعالى: «وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» (الكهف:28).

وهذا الثبات المذكور قرع عن ثبات أعم، ينبغي أن يتسم به الداعية الرباني، قال تعالى: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا» (الأحزاب: 23).

ففي الآيات الكريمة ثلاث صفات، ايمان، ورجولة، وصدق. وهذه العناصر مهمة للثبات على المنهج الحق؛ لأن الايمان يبعث على التمسك بالقيم الرفيعة والتشبث بها، ويبعث على التضحية بالنفس ليبقى المبدأ الرفيع، والرجولة محركان للنفس نحو هذا الهدف غير مهتمة بالصغائر والصغار، وانما دائمًا دافعة نحو الهدف الأسمى، والمبدأ الرفيع والصدق يحولان دون التحول أو التغيير أو التبديل، ومن ثم يورث هذا كله الثبات الذي لا يتلون معه الانسان، وان رأى شعاع السيف على رقبته، أو رأى حبل المشنقة ينتظره، أو رأى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها.

ولا شك في أن اللبنات التي تعد لحمل الدعوة، واقامة الدولة، وصناعة الحضارة تحتاج الى الثبات الذي يعين على تحقيق الأهداف السامية، والغايات الجميلة والقيم الرفيعة.

هذه من أهم الصفات التي اتصفت بها الجماعة المؤمنة الأولى.

تاسعًا: انتشار الدعوة في بطون قريش وعالميتها:

كان انتشار الاسلام في المرحلة السرية، في سائر فروع قريش بصورة متوازنة من دون أن يوجد ثقل كبير لأي قبيلة، وهذه الظاهرة مخالفة لطبيعة الحياة القبلية آنذاك. وهي اذا أفقدت الاسلام الاستفادة الكاملة من التكوين القبلي والعصبية لحماية الدعوة الجديدة ونشرها، فانها في الوقت نفسه لم تؤلب عليها العشائر الأخرى بحجة أن الدعوة تحقق مصالح العشيرة التي انتمت اليها وتعلي من قدرها على حساب العشائر الأخرى، ولعل هذا الانفتاح المتوازن على الجميع أعان في انتشار الاسلام في العشائر القرشية العديدة دون تحفظات متصلة بالعصبية، فأبوبكر الصديق من (تيم)، وعثمان بن عفان من (بني أمية)، والزبير بن العوام من (بني أسد)، ومصعب بن عمير من (بني عبد الدار)، وعلي بن أبي طالب من (بني هاشم)، وعبد الرحمن بن عوف من (بني زهرة)، وسعيد بن زيد من (بني عدي)، وعثمان بن مظعون من (بني جُمح)، بل ان عددًا من المسلمين في هذه المرحلة لم يكونوا من قريش، فعبد الله بن مسعود من (هُذيل)، وعتبة بن غزوان من (مازن)، وعبد الله بن قيس من (الأشعريين)، وعمار بن ياسر من (عنس) من مَذحج، وزيد بن حارثة من (كلب)، والطفيل بن عمرو من (دوس)، وعمرو بن عبسة من (سليم)، وصهيب النمري من (بني النمر بن قاسط)، لقد كان واضحا أن الاسلام لم يكن خاصًا بمكة.

لقد شق النبي -صلى الله عليه وسلم- طريقه بكل تخطيط ودقة، وأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، فاهتم بالتربية العميقة، والتكوين الدقيق، والتعليم الواسع، والاحتياط الأمني، والانسياب الطبيعي في المجتمع، والاعداد الشامل للمرحلة التي بعد السرية، لأنه عليه الصلاة والسلام يعلم أن الدعوة الى الله لم تنزل لتكون دعوة سرية، يخاطب بها الفرد بعد الفرد، بل نزلت لاقامة الحجة على العالمين، وانقاذ من شاء الله انقاذه من الناس من ظلمات الشرك والجاهلية، الى نور الإسلام والتوحيد، ولذلك كشف الله تعالى عن حقيقة هذه الدعوة ومبدائها، منذ خطواتها الأولى، حيث ان القرآن المكي بين شمول الدعوة وعالميتها: قال تعالى: «إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ» (ص: 87). وقال تعالى: «وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ» (القلم: 52).

ان الدعوة جاءت لتخاطب البشر، كل البشر، ولتنقذ منهم من سبقت له من الله الحسنى، وهذا يعني ان الدعوة جاءت ومن خصائصها، الاعلان والصدع، والبلاغ، والبيان، والانذار، وتحمل ما يترتب على هذا من التكذيب، والايذاء والقتل.

ان استسرار النبي -صلى الله عليه وسلم- في دعوته أول الأمر، انما هو حال استثنائي لظروف وملابسات خاصة، وهي ظروف بداية الدعوة وضعفها وغربتها، وينبغي ان يفهم هذا ضمن هذا الاطار.

وان كان الكتمان والاستسرار، سياسة مصلحية في كثير من امور الاسلام في الحرب والسلام، فهو كذلك في موضوع الدعوة، فالاستسرار بها كان لضرورة فرضها الواقع، والا فالأصل هو بيان دين الله وشرعه، وحكمه لكل الناس. أما الاستسرار بما سوى ذلك من الوسائل والخطط والتفصيلات، فهو أمر مصلحي، خاضع للنظر والاجتهاد البشري، اذ لا يترتب عليه كتمان للدين، ولا سكوت عن حق، ولا يتعلق به بيان، ولا بلاغ، ومن ذلك مثلا معرفة عدد الأتباع المؤمنين بالدعوة، فهذا أمر مصلحي لا يخل بقضية البلاغ والنذارة، التي نزلت الكتب وبعثت الرسل من اجلها، فيمكن أن يظل سرًا متى كانت المصلحة في ذلك مع القيام بأمر الدعوة والتبليغ؛ ولهذا فان النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى بعد أن صدع بدعوته، وانذر الناس واعلن النبوة، ظل يخفي اشياء كثيرة، لا تؤثر على مهمة البلاغ والبيان كعدد أتباعه، وأين يجتمع بهم؟ وما هي الخطط التي يتخذونها ازاء الكيد الجاهلي.

ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إنني من المسلمين

■ سرية دعوة النبي في أول الأمر حال استثنائي لظروف وملابسات خاصة

■ الإسلام جاء ليخاطب كل البشر ولينقذ منهم من سبقت له من الله الحسنى

اليمين الفاجرة منفقة للسلعة ممحقة للرزق

الإسلام جعل الوعود الكاذبة أمارة النفاق

الحدود التي يقف عندها المسلم، ويخرج بها من تبعة الملق والمبالغة، وينفع بها ممدوحه، فلا يزله إلى العجب والكبرياء، قد بينها النبي الحكيم. فعن ابي بكرة قال: أثنى رجل على رجل عند رسول الله، فقال له: «ويحك قطعت عنق صاحبك قالها ثلاثا ثم قال: من كان مادحا أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلانا والله حسيبه ولا يُزكي على الله أحدٌ أحسب فلانا كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه».

والتاجر قد يكذب في بيان سلعته وعرض ثمنها، والتجارات عندنا تقوم على الطمع البالغ؛ البائع يريد الغلو، والشارى يريد البخس، والآثرة هي التي تسود حركات التبادل في الأسواق والمحال، وقد كره الإسلام هذه المعاملة الجشعة، وما يشوبها من لغو ومراء. قال رسول الله: البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدق البيعان وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما فعسى أن يربحا ربحا ما، ويمحق بركة بيعها وفي رواية: مُحقت بركة بيعهما.. اليمين الفاجرة منفقة للسلعة ممحقة للكذب، ومن المشترين رجال يُقبلون على الباعة وهم قليلو الخبرة، بسريعو التصديق لما يقال لهم، فمن الإيمان ألا تستغل سذاجتهم في كسب مُضاعف أو تغطية عيب.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كبُرت خيانة أن تحدّث أخاك حديثا، هو لك مُصدّق، وأنت له كاذب» . وقال: «لا يحل لامرئ مسلم، يبيع سلعة، يعلم أن بها داء إلا أخبر به». وعن ابن أبي أوفى: أن رجلا أقام سلعة في السوق فحلف بالله : لقد أعطى بها ما لم يُعط ليوقع فيها رجلا من المسلمين فنزلت: «إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم»، والحيف في الشهادة من أشنع الكذب. فالمسلم لا يبالي إذا قام بشهادة ما ان يقرر الحق ولو على أدنى الناس منه وأحبهم إليه، لا تميل به قرابة ولا عصبية، ولا تزيغه رغبة أو رهبة.. وتزكية المرشحين لمجالس الشورى، أو المناصب العامة، نوع من الشهادة، فمن انتخب المغموط في كفايته وأمانته، فقد كذب، وزور، ولم يقم بالقسط. والله تبارك وتعالى يقول: «يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا».

وعن أبي بكرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثا قلنا : بلى: قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس.. وكان متكئا فجلس!، وقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت!!». إن التزوير كذب كثيف الظلمات، إنه لا يكتم الحق فحسب، بل يمحقه ليثبت مكانه الباطل، وخطره على الأفراد في القضايا الخاصة، وخطره على الأمم في القضايا العامة شديد مبيد، ومن ثم خوف الرسول منه على هذا النحو الصارخ. وعلى أرباب الحرف والصناعات، أن يجعلوا من كلمتهم قانونا مرعى الجانب، يقفون عنده ويستمسكون به، فإنه لمن المؤسف أن تكون الوعود المخلفة، والحدود المائعة عادة مأثورة عن كثير من المسلمين، مع أن دينهم جعل الوعود الكاذبة أمارة النفاق.

الصديق في حنين.. الفتوى بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم

أخذ المسلمون يوم حنين درسًا قاسيًا، إذ لحقتهم هزيمة في أول المعركة جعلتهم يفرون من هول المفاجأة، وكانوا كما قال الإمام الطبري: فانشمروا لا يلوي أحد على أحد. وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أين أيها الناس؟ هلموا إلي، أنا رسول الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله، يا معشر الأنصار أنا عبدالله ورسوله» ثم نادى عمه العباس وكان جهوري الصوت، فقال له: «يا عباس نادِ: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة». كان هذا هو حال المسلمين في أول المعركة، النبي وحده لم يثبت معه أحد إلا قلة، ولم تكن الفئة التي صبرت مع النبي إلا فئة من الصحابة يتقدمهم الصديق، ثم نصرهم الله بعد ذلك نصرًا عزيزًا مؤزرًا.

وكانت هناك بعض المواقف للصديق منها:

فتوى الصديق بين رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال أبوقتادة: لما كان يوم حنين نظرت إلى رجل من المسلمين يقاتل رجلا من المشركين وآخر من المشركين يختله من ورائه ليقتله، فأسرعت إلى الذي يختله، فرفع يده ليضربني وأضرب يده فقطعتها، ثم أخذني فضمني ضمًا شديدًا حتى تخوفت، ثم ترك فتحلل ودفعته ثم قتلته، وانهزم المسلمون وانهزمت معهم، فإذا بعمر بن الخطاب في الناس، فقلت له: ما شأن الناس؟ قال: أمر الله، ثم تراجع الناس إلى رسول الله، فقال رسول الله: «من أقام بينة على قتيل قتله فله سلبه»، فقمت لألتمس بينة على قتيلي فلم أر أحدًا يشهد لي، فجلست، ثم بدا لي فذكرت أمره لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من جلسائه: سلاح هذا القتيل الذي يذكر عندي، فأرضه منه، فقال أبو بكر: كلا، لا يعطه أصيبغ من قريش ويدع أسدا من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، قال: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأداه إلي، فاشتريت منه خَرَفًا، فكان أول مال تأثلته في الإسلام.

أن مبادرة الصديق في الزجر والردع والفتوى واليمين على ذلك في حضور رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بصدقه الرسول فيما قال، وبحكم بقوله خصوصية شرف، لم تكن لأحد غيره. ونلحظ في الخبر السابق أن أبا قتادة الأنصاري حرص على سلامة أخيه المسلم وقتل ذلك الكافر بعد جهد عظيم، كما أن موقف الصديق فيه دلالة على حرصه على إحقاق الحق والدفاع عنه، ودليل على رسوخ إيمانه وعمق يقينه، وتقديره لرابطة الأخوة الإسلامية، وأنها بمنزلة رفيعة بالنسبة له.

الصديق وشعر عباس بن مرداس

حين استقل العباس بن مرداس عطاءه من غنائم حنين، قال شعرا عاتب فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال:

كانت نهابا تلافيتها
بكري على المهر في الأجرع
وإيقاظي القوم أن يرقدوا
إذا هجع الناس لم أهجع
فأصبح نهبي ونهب العبيد
بين عيينة والأقرع
وقد كنت في الحرب ذا تدرأ
فلم أعط شيئا ولم أمنع
إلا أفائل أعطيتها
عديد قوائمها الأربع
وما كان حصن ولا حابس
يفوقان شيخي في المجمع
وما كنت دون امرئ منهما
ومن تضع اليوم لا يُرفع

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اذهبوا به، فاقطعوا عني لسانه»، فأعطوه حتى رَضِي، فكان ذلك قطع لسانه الذي أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأتى العباس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنت القائل: «فأصبح نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة»؟ فقال أبوبكر: بين عيينة والأقرع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هما واحد»، فقال أبوبكر: أشهد أنك كما قال الله تعالى: «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ» [يس: 69].